قيافة العرب وعيافتهم

تقول العرب قاف فلان أثر فلان قيافة واقتافه كقفاه واقتفاه اذا اتبعه ومنه القائف وهو الذي يعرف الآثار . وتقول عاف الرجل الطير عيافة اذا زجرها ليتسعد أو يتشأم ومنه القائف وهو المتكهن بالطير.

فالقيافة أصلا هى الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها غير أنهم توسعوا فيها فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه وسموا الاولى قيافة الأثر والثانية قيافة البشر كما أن العيافة أصلها الاستدلال بأسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على مايتفاءل به أو يتشاءم منه ولكنهم توسعوا فيها أيضا حتى تعدت الطير الى غيرها من الحيوان والنبات والجماد وتعدت ماتقدم من الاسماء والسقوط والارتفاع الى الأصوات والحركات وسائر الأحوال والصفات

وكلتاهما ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال ومن علوم العرب وفنونهم المعروفة عنهم فى جاهليتهم قبل اسلامهم والتى لاتزال باقية عند أهل البوادى منهم الى الآن : ولهم فى البابين أمور لايعرف المطلع عليها كيف وقعت لهم وصدرت منهم وهانحن أولاء سائقون من القول والتمثيل فى ذلك مايسمح به المقام

القيافة

قلنا إن القيافة قسمان : قيافة أثر هى الأصل وقيافة بشر أنت

بطريق التوسع فى استعمال اللفظ ونقول الآن إنهم كانوا فى قيافة الأثر يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب والبصير والأعمى والأحمق والكيس وكانوا فى قيافة البشر اذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا كلا برهطه وعشيرته فاذا كانوا من رهط ألحقوا الابن بأبيه والأخ بأخيه والقريب بقريبه وقد اشتهر بهذا النوع قريش كما اشتهر بالنوع الأول بنو مدلج وهم بطن من كنانة قيل إنه كان يعرض على أحدهم المولود وهو ابن أيام فى عشرين نفراً فيلحقه بأبيه . أما الأفراد من غيرهما فقد كانوا لايحصون عدا لحاجة العرب فى بدوهم الى تعرف الآثار وحقيقة الأنساب والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة وأم الاختراع

فمن قيافة الأثر ماروي عن أولاد نزار بن معد بن عدنان وكان قد أوصاهم اذا اختلفوا فى قسمة ماله من بعده أن يذهبوا الى الأفعى الجرهمي ليقضى بينهم فاختلفوا وذهبوا وبينما هم فى طريقهم رأى مضر أثر كلأ قد رعى فقال ان البعير الذى رعى هذا لأعور وقال ربيعة وانه لأزور وقال إياد وانه لأبتر وقال انمار وانه لشرود ثم ساروا قليلا فاذا هم برجل ينشد جمله فسألهم عنه فوصفوه بما قالوا فقال الرجل هذه والله صفة بعيرى فدلونى عليه فقالوا والله مارأيناه فقال هذا والله الكذب كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيرى بصفته وتعلق بهم حتى قدموا الى الأفعى بنجران فقال له الرجل هؤلاء أخذوا جملى ووصفوا لى صفته ثم قالوا لم نره وخاصمهم اليه فقال لهم الأفعى كيف وصفتموه ولم تروه

فقال مضر رأيته رعى جانبا وترك جانبا فعلمت أنه أعور وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعلمت أنه أزور لانه أفسده بشدة وطئه لازوراره وقال إياد عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيالا لمصع به وقال أنمار عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه الى مكان أرق منه وأخبث نبتا فعلمت انه شرود فقال الأفعى للرجل ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم عن حاجتهم وجال معهم فيها جولة ليست من موضوعنا وان كانوا قد تفرسوا خلالها فراسات صدقت ولكن عن غير طريق القيافة ولذا عدلنا عنها

فذلك مثال عجب من قيافة الاثر وانه لأعجب منه وأغرب ماروى عن رجلين من القافة اختلفا فى أمر بعير بين مكة ومنى فقال احدهما هو جمل وقال الآخر هى ناقة وقد سبق القول بأن من قيافتهم تمييز اثر الذكر من اثر الانثى ثم مشيا يتبعان الاثر حتى دخلا شعب بنى عامر فاذا بعير واقف فقالا أهو ذا وقصداه جميعا فاذا هو خنثى

ومن قيافة البشر ما حدث من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان من رجالها الذين يفضون بها ويتزلون على حكمها فى الانساب لما يترتب عليها من الحرمان أو المنح أو التقليل أو التكثير فى الأعطيات فقد روى أن قوما أتوه يزعمون أنهم من قريش ليثبتهم فيها ويعطيهم كما يعطيها فقال اخرجوا بنا الى البقيع فخرجوا فنظر الى أكفهم ثم قال اطرحوا العطف فطرحوها ثم امرهم أن يقبلوا ويدبروا ففعلوا

وإذ ذاك أقبل عليهم فقال ليست با كف قريش ولا شمائلها وأعطاهم فيمن هم منه.

وقد كان في قريش أيضا من يقفون الأثر ومنهم الذى تتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر حين خرجا الى الغار على أرض قلما تتبين فيها الآثار فانه سار مسيرهما حتى لحقته الحيرة أمام الغار فقال الى هاهنا انتهت أقدامهما ولولا ماحجب الله به بابه من معجزة العنكبوت كما قال الرواة لاقتحمه عليهما.

والقول فى ذكر الاخبار والقصص يتسع ويطول فلننتقل الى العيافة وبعض ماورد فيها:

العيافة

تقدم أن العيافة هى الاستدلال باسماء الطير وسقوطها وارتفاعها على مايتفاءل به أو يتشاءم منه وأنها تعدت الطير وتلك الاشياء الى غيرها فأصلها فى الطير وقد اشتهرت بها قبائل وأفراد أخصهم بنو لهب وهم بطن من الازد وفيهم يقول كثير

سألت أخا لهب ليزجر زجرة وقد صار زجر العالمين الى لهب

وكان من عادة العرب فى عيافة الطير أن يزجروا على السانح ويتبركوا به والسانح ما أراك ميامنه فأمكن الصائد منه وأن يكرهوا البارح ويتشاءموا منه والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد الا أن ينحرف له وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا. ومن الزجر بأسمائها وأسماء

غيرها ما ذكره ذو الرمة فى بيتين له رواهما أبو العباس المبرد عن رجل من أصحابه من بنى سعد عن أعرابى قال أنشدنى أعرابى فى قصيدة ذى الرمة

ألا يا اسلمى يادارىّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

بيتين لم تأت بهما الرواة وهما

رأيت غرابا ساقطا فوق قضبة من القضب لم ينبت لها ورق نضر

فقلت غراب لاغتراب وقضبة لقضب النوى هدى العيافة والزجر

ومنه أيضا قول جحدر العكلى

وقديما هاجنى فازددت شوقا بكاء حمامتين تجاوبان

تجاوبتا بلحن أعجمىّ على عودين من غرب وبان

فكان البان أن بانت سليمى وفى الغرب اغتراب غير دان

فقد وضح أن العرب تزجر بالطير وغيره فى أحوال لاحال فتتشأم كما تقدم فى الشعرين أو تتسعد كما قال الشاعر فى الهدهد فجعله هدى وهداية قال

وقالوا تغنى هدهد فوق بانة فقلت هدى يغدو به ويروح

وكما قال فى العقاب فجعلها عقبى خير

وقالوا عقاب قلت عقبى من النوى

دنت بعد هجر منهم وتروح

وكما قال فى الحمام فجعله من حم اللقاء

وقالوا حمام قلت حم لقاؤها وعاد لنا ريح الوصال يفوح

وان شاء أن يجعل الحمام من الحمام بكسر الحاء وهو الموت ويجعل العقاب عقبى شر لا عقبى خير ويتخذ الهدهد من الهد والاتلاف وهو أقرب الى لفظه لكان له ذلك فقد جعلوا الصبا والجنوب تينكم الريحين المحبوبتين عندهم من الاجتناب والصبابة قال قائلهم

وهبت جنوب باجتنابي منهم
وهاجت صبا قلت الصبابة والهجر

فالطير الواحد أو الشيء قد يتفاءل به أو يتطير منه إلا الغراب فان شعرهم فيه لا يخرج عن التطير والتشاؤم حتى قالوا «أشأم من غراب» وانما لزمه ذلك حيث كان من عادته اذا بان أهل الدار للنجعة أن يقع في موضع بيوتهم يتلمس فلما كان لا يعتريهم الا اذا بانوا دام تشاؤمهم منه وسموه غراب البين وان شئت فقل واشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب وليس في الارض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شيء مما اعتادوا التشاؤم به الا والغراب عندهم أشأم منه وأنكد (١) فصياحه أكثر أخبارا والزجر فيه أعم قال عنتره

خَرِق الجناح كأن لحْيَي رأسه جَلمان بالأخبار هشٌ مولع

وقال جرير

ان الغراب بما كرهت لمولع ينوى الاحبة دائم التشحاج
ليت الغراب غداة ينعب دائبا كان الغراب مقطع الاوداج

(١) البارح تقدم ذكره مع السانح والنطيح ما أتى من الامام والقعيد ما أتى من الخلف أما الاعضب فالثور المكسور القرن

وقال ابن ابى ربيعة

نُعِبَ الغراب بيين ذات الدُّملج ليت الغراب بينهـا لم يشجج

ولتوافق الخواطر فى الشعرين الاخيرين وغيرهما بذكر نعيب الغراب « وهو أن يقول غاق غاق » دون نغيقه « وهو أن يقول غيق غيق » قال بعض الرواة ان الذى يتطير منه هو النعيب لا النغيق ولكنا نقول ليس هـذا القول الا مجرد استنباط لايؤيده واقع ولا تلزم به حجة فقد ذكر نغيق الغراب فى التشاؤم كما ذكر نعيبه قال زهير

ألقى فراقهم فى المقلتين قذى أمسى بذاك غراب البين قد نعقا

وقال آخر

تركت الطـير عاكفة عليهم وللغربان من شبع نغيق

والقول فى الغراب وتشاؤم العرب منه نعيبه ونغيقه أكثر من أن يطلب عليه شاهد وهم يسمونه حاتما لأنه يحتم عليهم بالفراق والأعور تطيرا عليه اذ كان أصح الطير بصرا فلنكتف بقول قائل يرى الى أى حد بلغ التشاؤم منه قال

اذا ماغراب البـين صاح فقل له ترفق رماك الله ياطـير بالبعد

لأنت على العشاق أقبح منظر وأبشع فى الأبصار من رؤية اللحد

تصيح بين ثم تعثر ماشـيا وتبزر فى ثوب من الحزن مسود

متى صحت صبح البين وانقطع الرجا كانك من يوم الفراق على وعد

غير أن بعضهم أعرض عن التطير به فى الرحلة والنوى وتطير بالأبل لأنها تحمل المرتحلين وأثقالهم على نحو ماترى الشاعر يقول

مافرق الألاّف بعـــد الله الا الابل
ولا اذا صـاح غرا ب فى الديار احتملوا
وما غراب البين الا ناقة أو جمـل

وقال آخر داعيا عليها كذلك

لهن الوجا لم كنّ عونا على النوى ولا زال منهـا ظالع وحسـير

والكلام ذو طرق وشعوب ولكل وجهة فبينا ترى هذين يذمانها ويدعوان عليها اذا آخر يراها سبب الوصلة وآلة اللقاء فيقول

ألا فرعى الله الرواحل انما مطايا قلوب العاشقين الرواحل
على أنهن الواصلات عرا النوى اذا ما نأى بالآلفـين التواصل

فهذه جملة من زجر الطير والحيوان أما زجر الشيء أيا كان فالقول فيه كثير والحوادث أكثر وهاته واحدة منها على سبيل التمثيل وقعت لسيدنا عمر رحمه الله من لهبي ورواها رجل من حضرموت قال . حضرت الموقف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنـه فصاح به صائح ياخليفة رسول الله ثم قال يا أمير المؤمنين فقال رجل من خلق دعاه باسم ميت مات والله أمير المؤمنـين فالتفت فاذا رجل من بنى لهب فاما وقفنـا لرمى الجمار اذا حصاة قد صكت صلعة عمر فأدمته فقال قائل أشعر والله أمير المؤمنين لا يقف هذا الموقف أبدا فالتفت فاذا بذلك اللهبى بعينه قال الرجل فقتل عمر رحمه الله قبل الحول اه

قول اللهبى أشعر يريد قتل وهو فعل لا يعبر عنه به الا فى الملوك خاصة اذ

كانوا يكبرون أن يقولوا قتل فلان فيقولون أشعر فلان من إشعار البُدْن جمع بدنة وهى العظيمة الضخمة من الابل أى نحرها ومنه المُشْعَرة وهى اسم لقتلى الملوك خاصة ومن ذلك قول زياد بن عمرو فى مجلس المصالحة على دفع الديات اذ قتل أخوه مسعود «وليود مسعود دية المشعرة» أى دية قتلى الملوك

الى هذا نقصر القول على القيافة والعيافة على أن نسوقه فى العدد المقبل ان شاء الله على عرافة العرب وكهانتهم مشفوعا بشىء عن عقيدتهم الحقة فى تلك الأمور وموقف الدين الاسلامى ازاءها من حيث علاقتها بتعرف بعض الخلق من حوادث الماضى أو التكهن على بعض الشىء من أمور المستقبل والسلام ؟

السباعى بيومى

المدرس بمدرسة الاقباط الكبرى الثانوية

كلمات

— ٢ —

الشركات

تمهيد .

من مظاهر المدنية الحديثة انتشار روح التعاون والتضافر بين الناس وقيام الجماعات بأعباء الاعمال التى يعجز عن أدائها الانسان منفردا. ولما كانت المدنية تتطلب مشروعات واسعة النطاق كانشاء السكك الحديدية وحفر الترع وابتناء السفن وما الى ذلك وكان مثل هذه الاعمال